دولة الخوارج فى اليمن

بنـو مهدى فى زبيـــد

٥٥٤ — ٥٦٩ هـ

الدكتور محمد أمين صالح

أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد
كلية الآداب — جامعة القاهرة

شهد اليمن ظهور دولة لم يطل حكمها أكثر من خمسة عشر عاماً ، أقامها بحد السيف ودعوى الدين أحد المتصوفة من رعية امارة بنى نجاح بتهامة ، من أهل قرية العنبرة عند نهاية وادى زبيد قرب البحر ، هو أبو الحسن على بن مهدى ابن محمد الحميرى .

فقد نشأ على بن مهدى هذا نشأة دينية على نشأة طريقة والده فى العزلة والتمسك بالصلاح . حفظ القرآن والتفسير والحديث فصار غزير المحفوظات . كما كان يلتقى فى مواسم الحج بمكة والمدينة مع علماء العراق ويتضلع فى معارفهم، ويعود إلى بلاده ليقوم بالوعظ والإرشاد بمساجد قرى ساحل زبيد . ولم يلبث أن اشتهر أمره بين أهل هذه القرى بما عرف عنه من فصاحة مع حسن الصوت وطيب النغمة وحلاوة الايراد مع دمعة لا ترقأ فى مقلتيه على مر الأيام(١) .

ويذكر المؤرخون عن على بن مهدى هذا بجانب كونه من رجال الدين ، « أنه كان يتحدث بشىء من أحوال المستقبلات فيصدق(٢) » ، فهو شىء كالرجم بالغيب يستهوى العامة ، فاستمال قلوبهم

وصلت أخبار ابن مهدى مسامع حكام زبيد كرجل صوفى تقى صالح ، ورعاية منهم وعناية كعادتهم فى إكرام رجال الدين صدر أمر باعفائه[٣] من خراج املاكه هو وأخوته وأصهاره وكل من يلوذ به فى طريقة الصوفية .

صدر هذا الاعفاء عام ٥٣٦هـ/١١٤١ – ١١٤٢م على عهد القائد سرور الفاتكى الحاكم فى دولة بنى نجاح بتوجيه من « علم » والدة الأمير فاتك ابن منصور ، والتى عرفت بالحرة الحجاجة الصالحة .

وقد يكون على بن مهدى وعد مريديه بهذا الخير مسبقا عندما عزم وكتب إلى حكام زبيد راجيا أو طالبا الإحسان إلى جماعته الصوفية أسوة بفقهاء وعلماء زبيد . فأجابوه بالإعفاء من الضرائب بدلا من العطاء أو الصدقات . فصدق وعده وقوله ، إذ ما لبث أتباعه أن « أثروا واتسع حالهم وركبوا الخيل »[٤] وكانت هذه أولى الخطوات فى طريق القوة السياسية التى مضت قدما من بعد .

فلم يكد يمض عامان حتى عقد ابن مهدى حلفا على النصرة مع قوم أتوه من أهل الجبال ، فتوجه إليهم من تهامة ليجتمع حوله نحو أربعين ألفا ، هاجم بهم مدينة الكدراء عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ – ١١٤٤ م غير أنه تعرض للهزيمة على يد القائد اسحق بن مرزوق والى الكدراء .

ولا تفصح المصادر اليمنية عن الدوافع التى جعلت على بن مهدى يتخذ هذا المنحى السياسى فيقوم بالتحالف مع أهل الجبال ليشن الحرب على مدن تهامة . هل هى دفعة عنصرية قحطانية ضد حكام زبيد الأحباش ؟ أم هى حركة إصلاحية تدعو إلى إزالة المنكرات واجتناب المحظورات بما ذاع عن مفاسد المجتمع فى إمارة بنى نجاح على عهد الوزراء العظام ؟ يبدو أن الأمر الثانى أقرب إلى الاحتمال لما سنرى من أحكامه .

ثم لماذا لم يعتمد ابن مهدى على العرب من أهالى قرى تهامة كالعنبرة التى نشأ فيها ، وواسط والقضيب والأهواب والمعتنى والغازة التى كان يتنقل

بينها وعرفه أهلوها ، ولجأ إلى عرب الجبال المطلة على تهامة ؟ هل رأى فى أهل السهول الدعة والاستكانة بعكس ما عليه أهل الجبال من حمية وشراسة ؟ وهل استجاب له أهل الجبال لتصوفه أو شهرته الدينية ، أم بدافع الطمع والغنيمة فى أراضى تهامة ؟ تلك أسئلة تكشف عن دوافع حركة ابن مهدى ونوازع أتباعه المتباينة دينا ودنيا .

ومهما يكن من أمر فانه لم يستطع بعد هزيمة الكدراء البقاء بالجبال أكثر من ثلاث سنوات . إذ عاد يكاتب الحرة الصالحة بالعفو عنه والاذن له ولأتباعه بالعودة إلى ديارهم بخفارتها وفى ذمتها[٦] . ونرجح أن ابن مهدى ناشد العاطفة الدينية لدى هذه السيدة ، « ففعلت له ذلك رغم معارضة رجال الدولة وفقهاء العصر » .

وتتداعى لدينا أسئلة أخرى فى مسألة هذا العفو . لماذا طلب ابن مهدى العودة إلى دياره ولم يظل مع حلفائه فى الجبال ؟ هل صادرت الدولة أراضيه وأراضى من التف حوله وتبعه عقابا على هجومهم على الكدراء فانقطعت عنهم الأموال ، ومن ثم وجد حرجا من أهل الجبال فطلب العودة إلى الديار ؟ وهل شمل طلب العفو تجديد الإعفاء الضريبى السابق ؟

لانشك فى حدوث المصادرة وضيق ذات اليد بالنسبة للقوة المادية اللازمة لمثل هذه الحركة التى ينشدها ابن مهدى فسعى للعودة بامتيازاته السابقة بتعهد قدمه للحرة الصالحة بالتزام طريق الدين . وهكذا عاد على بن مهدى إلى بلاده عام ٥٤١ هـ/١١٤٦ - ١١٤٧م ، وأقام يستغل أملاكه وهى مطلقة الخراج عدة سنوات « فاجتمع له من ذلك مال »[٧] . وبات ينتظر وقتا إذ كان يقول فى وعظه[٨] : « أيها الناس ، دنا الوقت ، أزف الأمر ، كأنكم بما أقول لكم وقد رأيتموه عيانا » . وما كان هذا الوعد للناس بالنسبة له معرفة بالمستقبل كما يشاع عنه .

ذلك أن ابن مهدى كان يرى نفسه ملتزما بتعهده السابق أمام الحـرة الصالحة شخصيا دون غيرها من رجال إمارة بنى نجاح . فهو ينتظر وفاتها ليحل نفسه من ارتباطاته ، لينطلق فى حركته السياسية ويطبق ما ارتآه من مذهب . ولم يطل انتظاره أكثر من أربع سنوات . فما أن توفيت الحرة الصالحة بزبيد عام ٥٤٥ / ١١٥٠ حتى أصبح فى الجبال مرة ثانية عند الداسر من بلاد خولان ثم ارتفع منه إلى حصن الشرف [٩] ليبدأ تنظيماته وحروبه ضد تهامة .

فمنذ عام ٥٤٥ / ١١٥٠ ولمدة تسع سنوات متواصلة شن على بن مهدى حربا متواصلة ضـــد دولة الأحباش فى زبيد . أخذت فى السنوات الست الأولى منها شكل غارات تخريبية على أعمال تهامة القريبة من مواقع تحصنه بالجبال . وهدف ابن مهدى من هذه الغارات ارضاء خولان أهـل حصن الشرف بالغنائم . فكانت الغارة سريعة وخاطفة تبدأ فى الصباح الباكر على القرى تعمل الحرق والنهب ، وتعود بالأنعام والأسرى حتى أرهب وأرهب أهل البوادى وأخرب قرائم فتعطلت الزراعة وانقطعت التجارة [١٠] .

وهكذا كان ابن مهدى ينال كثيرا من ملك الأحباش بتهامة دون الالتقاء معهم فى معركة قد يهزم فيها كما حدث سابقا . فلم تزل امارة بنى نجاح قوية بتواجد القائد سرور الفاتكى وبما كانت ترسله من الحاميات فى المراكز المختلفة [١١] ، غير أنها لم يكن فى مقدورها مطاردة المغيرين حتى مواقعهم بالجبال ، أو إرسال جيش كبير للقضاء على ابن مهدى ذاته فى موقعه بحصن الشرف ، وذلك لعوامل استراتيجية خاصة بطبيعة المنطقة فصلها عمارة اليمنى فى ثلاث نقاط [١٢] :

أولا : مناعة موضع حصن الشرف ذاته وبكثرة أهله من خولان .

ثانيا : خطورة الطريق الوحيد المؤدى إليه . فهو وادى طويل ضيق بين جبلين « مسافة يوم وبعض يوم » يصل إلى أصل الجبل الذى فيه الحصن . ثم الصعود اليه « مسافة نصف يوم » .

ثالثا : اتصال مجرى هـذا الوادى عند هبوطه إلى تهامة بأرض حراج ، وهى أراضى واسعة كثيرة الأشجار والأعشاب تصلح مخبأ أو مكمنا طبيعيا للجيوش ، فكان المغيرون يكمنون فى تلك الحراج فى حالة الضرورة ، « فلا يوصل إليها ولا يقدر عليها » .

وسلك ابن مهدى فى عدائه للأحباش ناحية أخرى . فهو بنفسه ذهب إلى ذى جبلة عام ٥٤٩ / ١١٥٤ لمقابلة محمد بن سبأ بن أبى السعود بن زريع الحاكم فى اليمن الأسفل خلفا للصليحيين فى ذلك الوقت ، يستعديه على حكام زبيد وعاد من مسعاه فاشلا(١٣) . ولم يبين عمارة اليمنى رغم معاصرته ومقابلته(١٤) لابن مهدى أثناء تواجده فى ذى جبلة، سبب رفض الداعى محمد بن سبأ بن أبى السعود سعى ابن مهدى . ومرده نحن فى أمرين أساسيين : أولها ، أن العداء التقليدى بين الصليحيين وبنى نجاح لم يعد من القوة التى كانت عليه من قبل . فقد انتقل الحكم من بيت الصليحى من حمير ، إلى آل زريع بن العباس ابن المكرم اليامى من همدان ، الذين حكموا فى عدن وأقاموا علاقات حسن جوار مع الأحباش فى زبيد . وثانيا : تعارض الأسس التى قامت عليها دولة بنى زريع مع تنظيمات ابن مهدى وحركته ، فبنو زريع هم دعاة الاسماعيلية ويدينون بالتبعية للخلافة الفاطمية التى تعادى أهل السنة عامة . فكيف يحالفون ابن مهدى وقد نحى فى تنظيماته منحى الخوارج كما سنرى فيما بعد .

لهذه الأسباب فشل ابن مهدى فى مسعاه فى ذى جبلة وعاد إلى مقره فى حصن الشرف يدبر أمرا آخرا ضد حكام زبيد هو اغتيال القائد سرور ، مقدرا حدوث الاضطراب الداخلى للتنافس المتوقع بين الرؤساء على منصبه . وفعلا نجح رجل من أتباع ابن مهدى فى قتل القائد سرور الفاتكى فى مسجده عند صلاة العصر يوم الجمعة ١٢ صفر ٥٥١ / ٦ أبريل ١١٥٦ « فانفتح على الدولة بعده باب الشر المسدود، وانحل عقدها المشدود(١٥) » .

وفى الحال غير ابن مهدى من أسلوب المعركة . فقد ترك حصن الشرف وهبط إلى الداسر أقرب الجبال إلى زبيد . وبث أتباعه بين أهل السهول من عرب تهامة « فكان الرجل من أصحاب ابن مهدى يلقى أخاه أو قريبه من رعايا الحبشة فيفسده » ولم يزل الأمر كذلك حتى زحف ابن مهدى إلى زبيد فى عوالم لا تحصى(١٦) .

وقاومت زبيد الحصار نحو ثلاث سنوات متحصنة بسورها وصد الأهالى نحو اثنين وسبعين زحفا لابن مهدى ، وتكبد الفريقان خسائر متعادلة فى الأرواح . غير أن الضر والجوع من شـــدة الحصار وقلة الأقوات نال من الأهالى، ودفع اليأس بهم إلى طلب المساعدة من الامام الزيدى أحمد بن سليمان صاحب صعدة وأغروه بملك زبيد . فاشترط عليهم قتل أميرهم محمد بن منصور ابن فاتك آخر امراء بنى نجاح . ومع كل فقد عجز الشريف الزيدى عن نصرتهم على ابن مهدى ، وتركهم بعد ستة أيام يواصلون القتال بمفردهم حتى انهارت المقاومة ودخـــل ابن مهدى زبيد عنوة يوم الجمعة ١٤ رجب ٥٥٤(١٧) ٢ أغسطس ١١٥٩ .

تلك هى الأعمال العسكرية التى استطاع بها على بن مهدى أن يقيم لنفسه حكما أو دولة على أنقاض بنى نجاح فى زبيد ، لا تدين بالتبعية الروحية لأى من الخلافتين العباسية السنية فى بغداد أو الخلافة الفاطمية الشيعية بالقاهرة . فهى دولة مستقلة ذات تنظيمات خوارجية .

فقد أقام ابن مهدى حكمه على أساس دينى . فهو أولا من أهل السنة على المذهب الحنفى تضلع فى معارف علماء ووعاظ العراق . ثم اتخذ مسحة من مبادىء الخوارج مثل التكفير بالمعاصى والقتل بها ، وكذا قتل كل من يخالف اعتقاده من المسلمين واستباحة الوطء لسباياهم واسترقاق ذراريهم، وجعلهم دار حرب يحكم فيهم حكمه فى أهل دار الحرب(١٨) .

كذلك كان ابن مهدى متطرفا فى أحكامه على رجال جيشه . فكان يحكم بقتل المنهزم فيهم أو من يشرب الخمر أو يسمع الغناء أو يقارف الزنى، أو من يتأخر منهم عن صلاة الجماعة ، أو يتأخر عن مجلس وعظه يومى الخميس والجمعة ، أو عن زيارة قبر أبيه . على أن أحكامه المدنية فى الرعايا كانت أخف وطأة[١٩] .

أما عن تنظيمات ابن مهدى فقد بدأ باعطاء ألقاب دينية سياسية لأتباعه مميزا بين أهل السهل وأهل الجبل ، مثل ما كان على عهد النبوة من مهاجرين وانصار . فأطلق على من صعد معه من أهل تهامة إلى حصن الشرف ، لقب المهاجرين ، وسمى أهل الحصن بالجبال بالأنصار . ثم طلب من كل فريق اختيار رجل منهم عينه نقيبا على طائفته. ونعت كلا منهما بشيخ الاسلام. وهذان وحدهما لهما حق الاتصال به ، فهما همزة الوصل بينه وبين كل من المهاجرين والأنصار، أما هو فقد احتجب عنهم جميعا[٢٠] .

فهل كان هذا الاحتجاب سوء ظن منه بأتباعه وخوفاً على نفسه كما يقول عمارة اليمنى[٢١] حتى إنه نزع الخيل والسلاح منهم، ووضع الخيل فى اصطبلاته والسلاح فى خزائنه فإذا أراد الغزو أخرج إليهم ما يلزم من خيل وعدة[٢٢] . أم أنه كما نرجح أراد أن يعطى الهيبة لشخصه والخضوع لأتباعه ؟ ونجح فى ذلك بأحكامه المدنية والعسكرية ، وبمـا أحاط به نفسه من القداسة والرهبة والجبروت ، ظهر فى صور متعددة للطاعة له والانقياد المطلق .

فهو مثلا يستطيع إذا شاء قتل نفر من جنده وهم لا يجرؤون على قتله دينا وعقيدة ! ! وإذا غضب على واحد من أكابرهم حبس نفسه فى الشمس وامتنع عن الطعام والشراب وقاطع أسرته ، ولا شفاعة له حتى يرضى عنه ابن مهدى من تلقاء نفسه ! ! . كذلك كان يمتحن إيمان فريق المهاجرين من أتباعه امتحانا عسيرا بأن يأمر الواحد منهم فيطيع، بقتل أبيه أو أمه ، أخيه أو ابنه، تأويلا منه لقول الله تعالى : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد

الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) . وأيضا تجبر حتى سيطر على أمور معاشهم بأن ألزمهم تسليم ما تغزل نساؤهم وبناتهم إلى بيت المال ، والتزم هو بكسائهم جميعا[٢٣] .

وهكذا كان على بن مهدى يقود أتباعه بدعوى الدين حتى تمكن من احتلال زبيد فى رجب عام ٥٥٤ هـ مسيطرا على تهامة . غير أنه لم ينعم طويلا بملكه إذ لم يلبث ان توفى فى شوال من نفس السنة ليواصل اولاده من بعده الحروب والأعمال العسكرية فى نجد اليمن .

خلف على بن مهدى أربعة من الأبناء هم : مهدى وعبد النبي وعبدالله واحمد . وينقل ابن الديبع[٢٤] الأقوال المختلفة عن تسلسل حكمهم . فرواية تقول ان الأول منهم هو مهدى ، ورواية اخرى تقول ان عبد النبى تولى تدبير المملكة وأخوه مهدى قيادة الجيش . فى حين يذكره ابن سمره[٢٥] ان عبد النبي خلف اخاه مهدى بعد وفاته . اما عمارة[٢٦] وهو اقدمهم فيقول ان الأمر انتقل إلى مهدى ثم عبد النبي ثم إلى عبد الله ثم عاد إلى عبدالنبى . ويبدو ان خلافا قد حدث بين عبد النبي وأخيه عبد الله لم يفصح عنه عمارة ، وهو خلاف كثيرا ما يحدث بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وسوف نشير إلى توقيته وأثره .

ويلزم ان ننظر إلى الأحوال السياسية فى اقليم الجبال باليمن الذى اعتراه التجزؤ وقتذاك . ففى الشمال كان الأئمة الزيديون يتناوبون السيادة فى صعدة ويمدون نفوذهم جنوبا إلى صنعاء وذمار حسب الظروف المواتية . وفى صنعاء ظهر بنو حاتم من همدان يحافظون على التوازن بين الزيدية فى الشمال والاسماعيلية فى الجنوب . اما عن دولة الصليحيين فى اليمن الأسفل وحتى عدن جنوبا

فقد انتقلت السيادة فيها من بيت الصليحى من حمير إلى بنى زريع من همدان الذين تقلدوا الدعوة للخليفة الفاطمى ، مع وجود بعض جيوب من بقايا رجال الصليحيين فى حصون متفرقة .

تلك هى القوى السياسية التى سينازلها بنو مهدى بنجد اليمن فى محاولة لإقامة دولة من دول الانتحار العسكرى على أنقاض هؤلاء جميعا ، لا تدين بالتبعية لأى من الخلافتين العباسية السنية فى بغداد ، أو الفاطمية الشيعية بالقاهرة . فهى دولة خوارج عرضنا لمبادئها سلفا .

وتبدو لنا من دراسة حروب بنى مهدى التى أوردها المؤرخون فى روايات مجملة مختلفة ودون تسلسل تاريخى ، استراتيجية معينة للسيطرة على اليمن الأسفل. فهم قد بدأوا غزواتهم نحو الجند كرأس حربة لتفصل ملك بنى زريع فى عدن ولحج وأبين بالسهول الجنوبية ، عن بقية أملاكهم فى التعكر وذى جبلة وغيرها فى الجبال شمالا إلى نقيل صيد ، مع تهديد مستمر لأهم معاقلهم فى عدن والدملوة ، تمهيداً للسيطرة على تلك المناطق جميعا . كذلك لم يغفل بنو مهدى شأن العامل النفسى بجعل الناس فى رعب وفزع شديدين بما تحدثه غاراتهم من قتل ونهب وتخريب لأعدائهم المخالفين لعقيدتهم ، وخاصة الفقهاء الذين كانوا يفرون من بطشهم ، فأبدلهم من بعد أمنهم خوفا . وحقق بنو مهدى بهذه الاستراتيجية انتصارات مبدئية كاسحة .

بدأ مهدى بن على بن مهدى سلسلة من الحروب مبتدئا بالهجوم على اليمن الأسفل من الجنوب . فنى عام ٥٥٧ هـ قام بغارة استكشافية تخريبية على الجند وبواديها فقتل أهل القرى ونهب وأرعب[٢٧] . وفى العام التالى قام بالاستيلاء عليها إذ دخل الجند فى شوال ٥٥٨ هـ وأعمل القتل فى الأهالى من صغير وكبير ورماهم فى البئر التى فى المسجد ثم « حرق المسجد بمن فيه من الضعفاء والعواجز والعواكف والودائع والكتب والمصاحف »[٢٨] . ويقال إن الخلق سمعت

وشفعت فى إيقافه . فقال : « قد استوجب النار لأنه قد خطب على منبره الاسماعيلية فهم أنجاس ينجس الجامع بذكرهم . وكل من هو نجس طهر وقد طهرناه بالنار »[٢٩] كذلك وقعت فى يد المهدى وبسهولة بعض الحصون المحيطة بالجند مثل الحريم وريشان من السلطان على بن أبى الفتوح الوليدى[٣٠] ، وتعز وصبر شراءاً من أحمد بن المنصور بن المفضل[٣١] .

ويضيف المؤرخون إلى أعمال المهدى الحربية غارته على لحج مرتين[٣٢] وأنه « قتل من أهلها عددا كبيراً وسبى الحريم والأموال الجزيلة » دون تحديد لتاريخ . ونرى حدوثهما إما فى نطاق غارته الاستكشافية الأولى فى الذهاب وعند العودة، أو فى نطاق الغزوتين المتتاليتين على الجند . وكلاهما بهدف واحد هو حماية للظهر وتهديد عدن تكتيكيا .

ومع كل فقد انتهى أمر هذا الطاغية المهدى بوفاته عقب عودته إلى زبيد بعد أعماله الأخيرة بالجند أواخر نفس العام وقبر مع أبيه فى مشهدهم بزبيد[٣٣] ليبدأ عهد وحروب الطاغية الثانى والأخير من بنى مهدى .

فقد واصل عبد النبى بن مهدى تنفيذ الاستراتيجية السابقة بأن خرج بجيش جرار عام ٥٥٩ /١١٦٣ - ١١٦٤) إلى جهة أبين، فأحرق وقتل وعاد إلى زبيد[٣٤] تاركا القيادة إلى أخيه أحمد بن مهدى الذى صمد وهاجم الجوة التى كان قد تجمع بها جيش الداعى عمران بن محمد بن سبأ. فانهزمت قوات بنى زريع فى وقعة مشهورة فى ذى الحجة ٥٥٩ ﻫ/نوفمبر ١١٦٤ . ودخل أحمد بن مهدى الجوة وأحرقها[٣٥] .

ولم تؤد هذه الحملة الأخيرة إلى نتيجة سوى ما أحدثته من قتل وتخريب وإقرار نفوذ بنى مهدى فى جهات تعز والجند والجوة بالجنوب ، إذ تأجلت ضربتهم التالية وتحقيق أهدافهم بغزو وامتلاك الأراضى والبلاد شمالا إلى مخلاف التعكر وذى جبلة مدة عامين رغم سنوح الفرصة .

فى عام ٥٦٠ / ١١٦٤ توفى الأمير الزريعى الداعى عمران بن محمد بن سبأ بعدن عن أطفال صغار نقلوا إلى حصن الدملوة تحت كفالة مولاه وعامله فى الدملوة جوهر المعظمى، بينما استمر وزيره ياسر بن بلال بن جرير المحمدى فى نيابة عدن . وتقوقع بنو زريع بذلك فى الدملوة وعدن وتركوا سائر أملاكهم بعد هزيمة الجوة فى فراغ سياسى لم يستفد منه عبد النبى، إذ لم تؤرخ له غزوات فى هذا العام . ربما يكون بسبب انشغاله بخلاف قد حدث فى زبيد من جانب أخيه عبد الله . وهو ما أشار إليه عمارة اليمنى دون تصريح بقوله : أن الأمر انتقل إلى مهدى ثم عبد النبي ثم إلى عبد الله ثم إلى عبد النبى.

وكذلك عام ٥٦١ / ١١٦٦ انشغل عبد النبى بن مهدى بغزوة أو قضية أخرى ناحية المخلاف السليمانى . حيث كان الأشراف من بنى سليمان يحكمون وقد أورد المؤرخون أخبار الغزوة وأحداث القتال وأقوال الشعراء وما كان من نتائجها دون أن يذكروا لها سبباً . وأكبر الظن أن أشراف المخلاف السليمانى قد امتنعوا عن دفع الأموال السنوية، إتاوة قدرها ستون ألف دينار كانوا يقدمونها من قبل لصاحب زبيد من بنى نجاح(٣٦). وقد تصدى الأشراف بشجاعة لبنى مهدى . فهاجمهم عبد النبى بعنف شديد وهزمهم ثم طاردهم وقتل أميرهم الشريف وهاس بن غانم بن يحيى فأخذ أمواله وسبى حريمه(٣٧) وكان لهذه الواقعة صدى كبير سنعرض له فيما بعد .

ثم عاد عبد النبى نحو الجبال ليستكمل الأهداف بحملة عام ٥٦٢/١١٦٧ سيطر بها على جميع اليمن الأسفل، الذى يحد بنقيل صيد أو بلاد يريم بيحصب العليا شمالا حتى جبال وصاب والشرف غربا، بجميع مدنه مثل ذى أشرف وإب، وذى جبله وجميع حصونه مثل التعكر والجمعة وحب وغيرها، مزيلا بذلك ملك آل زريع والصليحيين(٣٨) فى تلك الجهات، بالإضافة إلى الدملوة التى صالح حاكمها جوهر المعظمى على مال سنوى يقدمه إلى بنى مهدى(٣٩).

تلك هي الغارات والحروب التى شنها بنومهدى على اليمن الأسفل مستولين على جل مناطقه أو فارضين الأموال على بعضه ، بجانب استيلائهم سابقا على على تهامة ، مندفعين بالجرأة المعروفة عن الخوارج. وقد كان الأحرى ببني مهدى القنوع بملك تهامة غير أنهم اتجهوا صوب الجبال مدفوعين بالطمع إلى الاستيلاء على كنوز الصليحيين بالإضافة إلى كنوز بنى نجاح[٤٠]، ومستحلين دماء الناس وأموالهم وخاصة الفقهاء[٤١] الذين هربوا وأهلوهم خوفا من الموت . ولم يكن من المنتظر سكوت القوى الداخلية أو الخارجية عن هذا الطغيان المفترس باليمن .

ففي الداخل حدث تحالف همدانى بين بنى زريع فى عدن وبنى حاتم فى صنعاء . انضم إليه جنب من مذحج فى ذمار. أوقع الهزيمة بجيوش بنى مهدى فى مواقع ضارية . وتفصيل الأمر أن عبد النبي بن مهدى عاد بعد سبع سنوات يريد الاستيلاء على عدن فحط الحصار عليها أول عام ٥٦٩ / أغسطس ١١٧٣ فالتجأ أحد بنى زريع وهو حاتم بن على الأعز بن الداعى سبأ بن أبى السعود إلى صنعاء وغيرها مستصرخا برجال اليمن . فأجابه على بن حاتم بن أحمد اليامى أمير صنعاء ، وإن اشترط اشتراك مذحج وعلى رأسها جنب(٤٢) . وربما كان السلطان على بن حاتم يخشى على صنعاء من جنب إذا هو خرج منها . فلم يتحرك من صنعاء إلا وقد ضمن ذلك . فقد توجه إليهم حاتم الزريعى فى ذمار فأجابه السلطان عبد الله بن يحيي والشيخ زيد بن عمرو .

وهكذا خرج السلطان على بن حاتم بقواته من همدان وسنحان وبنى شهاب من صنعاء وعسكر عند نقيل صيد — جبل سمارة — وفى أعقابه جاءت قوات مذحج وعلى رأسها السلطان عبد الله بن يحيي والشيخ زيد بن عمرو . فتقدم إلى السحول وتجمعت قواتهم هناك وزحفوا جميعا وعسكروا بمنطقة إب(٤٣) .

ولم ينتظر عبد النبي بن مهدي زحف هذه الجيوش عليه في نواحي عدن وإنما ترك جزءا من قواته على حصارها، وصعد بجل قواته لمواجهة هذا التجمع اليمني ضده. وقسم عبد النبي جيشه إلى ثلاث وحدات أو فرق: الأولى في ذي جبلة، والثانية في الجبابي، والثالثة بين حصن المسوار وحول زلال. أما هو فقد أقام بحصن تعز[٤٤] — القاهرة الآن. وهكذا واجهت قوات التحالف قوات ابن مهدي موزعة مما ساعد على هزيمتها الواحدة تلو الأخرى.

فقد بدأت قوات التحالف الهجوم على جيش الجبابي «وكان به أجود عسكر ابن مهدي، فانهزم مثخنا بالقتل. وأمسى السلطان على بن حاتم بالجبابي وأصبح قاصدا جبلة فوجدها خاوية». ويبدو أن الهزيمة الأولى أحدثت أثرها في بقية قوات ابن مهدي هناك إذ تركت ذي جبلة ليلا. وتراجعت جيوش ابن مهدي لتلحق أميرهم عبد النبي عند حصن تعز في المعركة الأخيرة. فقد تقدم السلطان على بن حاتم من ذي جبلة إلى الجند فوجدها خاوية. فنهض بجميع من معه لمنازلة عبد النبي بن مهدي في موقعة هائلة بذي عدينة — تعز — في ربيع الأول ٥٦٩ هـ/أكتوبر نوفمبر ١١٧٣ فكانت الدائرة على ابن مهدي. وفي نفس الوقت هزمت قواته المحاصرة عدن. فاضطر عبد النبي إلى التراجع السريع إلى زبيد[٤٥] وزال نفوذه عن جميع اليمن الأسفل.

وقد كان السلطان على بن حاتم اليامي يريد نزول تهامة وتعقب المنهزمين بهذه القوات المتحالفة المنتصرة فلم يستطع ذلك «لأنه شاور جنبا فامتنعت وكسرت عليه»[٤٦] فعادت تلك القوات إلى بلادها وقد انتهى دورهم العظيم.

أما في الخارج فقد كان هناك جيش آخر تم إعداده في مصر وأخذ طريقه إلى بلاد اليمن في نفس العام كي يعيد بها الوحدة السياسية المفقودة على يد الأيوبيين. وتعددت الأسباب الداخلية والخارجية التي أدت إلى تدخل صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب في شئون اليمن. منها ما يذكره ابن عبد المجيد

وابن خلكان أن صلاح الدين الأيوبي بلغه ما يزعم به عبد النبي بن مهدى أن دولته ستطبق الأرض ، وأن ملكه يسير مسير الشمس[٤٧] وليس هـذا فى رأينا سببا معقولا أو مبررا كافيا . ومنها ما يذكره بامخرمة أن أحد أشراف المخلاف السليمانى خرج إلى بغداد مستنجدا بالخليفة العباسى ومستنصرا به على عبد النبي الذى قتل أميرهم الشريف وهاس بن غانم . فكتب الخليفة بدوره إلى صلاح الدين بأن يجرد جيشا لقتال ابن مهدى(٤٨).

غير أن العوامل الخارجية وليدة الظروف السياسية والاقتصادية الجارية فى الشرق الأدنى كانت أهم وأقـوى بكثير من تلك السابقة . ففى العراق كانت الخلافة العباسية تلتقط بعض أنفاسها من وطأة سلاطين السلاجقة المتنافسين . أما بالشام فقـد نجح الصليبيون فى تـكوين أربع امارات لهم فى الرها وبيت المقـدس وانطاكية وطرابلس ، وإن تمـكن البيت الزنـكى من القضاء عـلى اماراتهم بالرها . واحتفظ البيت الزنكى على عهد نور الدين محمود بإمارتى دمشق وحلب فى مواجهة هذه القوى الصليبية . وفى مصر كان الصراع على أشده بين كل من شـــاور وضرغام وزيرى الخليفة العاضد الفاطمى واستنجد كل منها بالقوى الخارجية بالشام ضد منافسه . فلعب كل منهما بالنـار إذ توالت الحملات النورية والصليبية على القاهرة . وأنجلى الموقف بزوالهما ، وسيادة الجيش النورى . ثم تولى أسـد الدين شيركوه ثم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب منصب الوزارة للخلافة الفاطمية . وتم على يد صـلاح الدين انهاء أمر الخلافة الفاطمية بالدعوة للخليفة المستضىء العباسى فى المحرم ٥٦٧/سبتمبر ١١٧١م . وصار مركز مصر السياسى فى إطار التبعية لدولة السلطان نور الدين محمود . وأصبح صلاح الدين نائبا عنه فى حكم مصر .

هذه الظروف السياسية تفسر كثيرا من عوامل الفتح الأيوبى لليمن .

فقد قيل إن صلاح الدين قام بفتح اليمن بسبب خوفه من السلطان نور الدين محمود ، وأنه أراد أن يتخذها مأوى له ولأسرته فى حالة هجوم نور الدين على مصر واقتلاع نائبه[٤٩] . وكانت قد وقعت وحشة بين الرجلين .

وسبب آخر نراه فى الربط بين الأحداث باليمن وتلك الظروف الدولية . فإذا كان أشراف المخلاف السليمانى قد طلبوا النجدة من الخلافة العباسية إزاء ما حل بهم من كوارث على يد بنى مهدى فقد جاءت استجابة هذه الخلافة من واقع الرغبة فى القضاء على النفوذ الفاطمى فى اليمن بعد أن زالت خلافتهم من مصر . وكذا إحلال النفوذ العباسى والمذهب السنى المفقود أو شبه المفقود بتواجد بنى زريع دعاة الفاطميين باليمن الأسفل، وبنى مهدى الخوارج بتهامة ، والزيدية فى صعدة بالشمال . ومن ثم جاء تكليف الخلافة العباسية للسلطان نور الدين فعهد بالتنفيذ إلى نائبه صلاح الدين بمصر .

وذكر للحملة الأيوبية سبب آخر جاء ضمن مؤامرة داخلية بالقاهرة عام ٥٦٩/١١٧٣ ضد صلاح الدين نفسه ، دبرت من جانب أطراف متعددة بهدف إعادة سيادة الخلافة الفاطمية المصرية التى سقطت عن وشك . وكان من زعمائها الضالعين مؤرخنا الفقيه عمارة اليمنى الذى كان من أنصار الفاطميين وجاء مصر ومدحهم ورثاهم بعد زوال خلافتهم[٥٠] ، رغم أنه سنى المذهب! . فعمل عمارة اليمنى على تشجيع حملة اليمن بمدح توران شاه أخ صلاح الدين المرشح لقيادة الحملة وإغرائه بهذا المشروع بغية إبعاد أقوى قواد صلاح الدين فرصة لتنفيذ المؤامرة. وقد اكتشف صلاح الدين المؤامرة واقتص من المتآمرين[٥١] .

ولم تقتصر الحملة الأيوبية على تلك العوامل السياسية فقط بل كانت هناك عوامل اقتصادية أخرى . كان هناك مقاطعة صليبية أوربية لتجارة العبور بين الشرق والغرب عبر الأراضى المصرية ، وأخذت هذه التجارة سبيلها بداية الحروب الصليبية إلى موانى الشام ، وأدت بجانب غيرها من العوامل[٥٢] إلى

خلق أزمة اقتصادية أشار إليها المقريزى فى أحداث عام ٥٦٧ / ١١٧١ بنفاذ العملة الذهبية والفضية من أسواق مصر(٥٣) .

وقام صلاح الدين بعدة إجراءات للاصلاح منها كسر هذه المقاطعة الصليبية . فلم يكن يخفى على صلاح الدين أهمية بلاد اليمن بالنسبة لتجارة البحر الأحمر ، وأن احتلالها يحكم السيطرة على مدخله من طرفه الجنوبى ، ويضمن لمصر استمرار ورود تجارة الكارم من عدن إلى عيذاب ، فيحصل على الذهب من حصيلة الرسوم الجمركية التى تجبى من الثغور المصرية واليمنية على السواء ومن هذه الناحية كان الفتح الأيوبى لبلاد اليمن ضرورة اقتصادية .

وأخيرا كانت حملة اليمن ذات بعد استراتيجى فى مواجهة القوى الصليبية بالشام وأطماعهم التوسعية فى البحر الأحمر وتجرؤهم على الأراضى الاسلامية المقدسة فى الحجاز . فقد ظهر الخطر الصليبى بالبحر الأحمر بعد ثمان سنوات فى حملتين متتاليتين عامى ٥٧٧ و ٥٧٨ / ١١٨١ و ١١٨٢ باشراف البرنس أرناط (رينودى شاتيون) صاحب حصن الكرك جنوب البحر الميت ، سواء فى محاولة الاستيلاء على الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ، أو ضرب الاقتصاد المصرى بتحويل تجارة البحر الأحمر إلى خليج العقبة وموانى الشام الصليبية كخطة مضادة لاجراءات صلاح الدين السابقة(٥٤) ، حتى إن بعض السفن الصليبية توغلت فى البحر الأحمر قاصدة عدن مركز تجارة الكارمية . وقد فشلت هذه المحاولات الصليبية أمام السيادة الايوبية فى البحر وسواحله الغربية المصرية وسواحله الشرقية بالحجاز واليمن .

فقد وصل الجيش بقيادة توران شاه إلى الحجاز وهو فى طريقه إلى اليمن عام ٥٦٩ / ١١٧٣ فأقر الحكام الاشراف من الحسنيين على حكم مكة والحسينيين على حكم المدينة ، وسيطر على الحجاز . ثم توجه إلى

المخلاف السليمانى . ووصل الخبر إلى عبد النبى بن مهدى بزبيد بوصول توران شاه وجيشه الى أبى تراب ـ حرض ـ عند الأمير الشريف قاسم ابن غانم بن يحيي ، وأنهم واصلون معه منجدون له فى قتل أخيه وهاس . فوصل توران شاه زبيد واحتلها بسهولة فى شوال ٥٦٩ /مايو ١١٧٤ ولاشك أن عبد النبى بن مهدى كان منهوك القوى من حروبه وهزيمته الأخيرة بنجد اليمن ، فوقع هو وإخواته فى الأسر . وزالت بذلك دولة بنى مهدى من تهامة.

وأخذ توران شاه يستعد لمواصلة فتح بقية اليمن(٥٥) .

الحواشى

(١) عمارة اليمنى : المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ٢٤٤ القاهرة ١٩٦٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ، ٣٦٠ القاهرة ١٩٧١ . ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ٧٠ القاهرة ١٩٦٥ .

(٢) المفيد : ٢٤٤ ــ بهجة الزمن : ٧٠ــ ٧١ ، قرة العيون ، ٣٦٠ .

(٣) المفيد : ٢٤٤ ــ ٢٤٥ ــ بهجة الزمن : ٧١ ، قرة العيون ، ٣٥٢ .

(٤) المصـــادر السابقة .

(٥) المفيد : ٢٤٥ بهجة الزمن : ٧١ ، قرة العيون ، ٣٦٠ ــ ٣٦١

(٦) المصـــادر السابقة .

(٧) المصـــادر السابقة .

(٨) المصـــادر السابقة .

(٩) المفيد : ٢٤٥ ، بهجة الزمن : ٧١ ــ ٧٢ ، قرة العيون ، ٣٦١

(١٠) المصـــادر السابقة .

(١١) المفيد : ٢٤٦ ، بهجة الزمن : ٧٢ .

(١٢) المفيـــد : ٢٤٦ .

(١٣) المفيد : ٢٤٧ ، قرة العيون : ٣٦٢ .

(١٤) يذكر عمارة ان ابن مهدى عرض عليه فى هذم المقابلة الانضمام الى حركته ويجعله مقدما على كل من أصحابه (نفس المصدر) .

(١٥) المفيد : ٢٤٣ قرة العيون : ٣٥٧ ، ٣٦٣ .

ذكر عمارة فى موضع آخر أن الاغتيال فى ٦ صفر ٥٥١ (نفسه : ٢٤٧). وطارد الناس ذلك القاتل ويدعى محرم وقتلوه فى عشية ذلك اليوم بعد أن قتل جماعة منهم . وفى مصدر آخر يوم الجمعة ١٢ رجب ٥٥١ ، بهجة الزمن: ٧٠ وقرة العيون : ٣٥٧ .

(١٦) المفيد : ٢٤٧ ــ ٢٤٨ ، بهجة الزمن : ٧٢ .

(١٧) المفيد : ٢٤٨ . تاريخ المستبصر ٧٣ ، بهجة الزمن : ٧٣ ، قرة العيون ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، طبقات فقهاء اليمن : ١٧٩ القاهرة ١٩٥٧ يذكر ابن سمرة دخول ابن مهدى زبيد يوم الجمعة آخر يوم من رجب عام ٥٥٤ .

(١٨) المفيد : ٢٤٣ و ٢٥١ ــ ٢٥٢ بهجة الزمن : ٧٤ .

(١٩) المفيد : ٢٥٣ با مخرمة : تاريخ ثغر عدن ١٢٨/٢ ، ليدن ١٩٣٦

(٢٠) المفيد : ٢٤٦ ، قرة العيون : ٣٦١ .

(٢١) المفيد : ٢٤٦ .

(٢٢) نفس المصدر : ٢٥٢ ، بهجة الزمن : ٧٤ .

(٢٣) المصدرين السابقين .

(٢٤) قرة العيون : ٣٦٥ ــ ٣٦٦

(٢٥) طبقات فقهاء اليمن : ١٨٣ .

(٢٦) المفيد : ٢٤٩ ، بهجة الزمن : ٧٣ .

(٢٧) ابن سمرة ، طبقات فقهاء اليمن ١٧٩ يقول انه قتل أهل قريتى الذنبتين والعربة وهرب امامه الفقيه على بن أحمد الى الأنصال بقرى العوادر وكان مسكنه اليهاقر ببادية الجند (نفسه ٣ ــ ٤) وكذا الفقيه يحيى ابن أبى الخير الى ذى أشرق ثم الى ضراس ثم الى ذى السفال (نفسه ١٧٩).

(٢٨) المصدر السابق : ٤ ، ١٨٢ .

(٢٩) قرة العيون : ٣٦٦ .

(٣٠) طبقات فقهاء اليمن : ١٨٢ .

(٣١) قرة العيون : ٢٨٣ ــ ٢٨٤

(٣٢) قرة العيون : ٣٦٥ .

(٣٣) طبقات فقهاء اليمن : ١٨٣ خرب بنو مهدى جامع الأهواب ــ الأهواب فرضة المراكب الواصلة من عدن ــ ونقلوا أخشاب الساج التى جلبت له من الهند الى المشهد الذى بنوه لأبيهم فى زبيد (ابن المجاور : ٢٤٧/٢) وكان على بن مهدى قد عين لولده الموضع وأمره أن يجعله جامعا يصلى فيه الجمعة على نحو ما فعلت الحرة الملكة بذى جبلة . فنفذ ابنه الوصية وقد خرب بعد ذلك وجعل اسطبلا لبعض سلاطين الأيوبيين . ثم سمى معقاب عاتكه جعلت فيه محامل السلطان وغيرها من آلاتهم . ثم خرب ولم يبق الا المنارة التى سقطت على عهد بنى رسول ٨٣١ هـ (قرة العيون : ٣٦٥) .

(٣٤) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن : ١٢٧/٢ ربما كانت عودته بسبب خلاف أخيه عبد الله بزبيد الذى سنشير الى آثاره بعد قليل .

(٣٥) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن : ١٢٨/٢ ، قرة العيون : ٣٦٧ .

(٣٦) المفيد : ٢٣٤ .

(٣٧) بامخرمة : ١٢٧/٢ ، قرة العيون : ٣٦٦ — ٣٦٧ .

(٣٨) المفيد : ٢٤٩ — ٢٥١ ، طبقات فقهاء اليمن : ١٨٣ ، قرة العيون: ٣٦٨ .

(٣٩) بامخرمة : ٤٢/٢ .

(٤٠) « أموال أهل زبيد من عبيد فاتك وجهاته وأعيان دولته الذين خلفوا الأموال الكبيرة والعيون الوفيرة صارت جميعها اليه لأنه أمسك نساءهم وذراريهم فأظهروا له كنوز أموالهم من المصوغ واللؤلؤ واليواقيت الفاخرة والملابس الجليلة على اختلاف أصنافها » (المفيد : ٢٤٩) وكذلك ذخائر التعكر وبها من ملك الداعى على بن محمد الصيلحى وابنه المكرم أحمد وزوجته الحرة الملكة (المفيد ٢٥٠) .

(٤١) طبقات فقهاء اليمن : ٣ — ٤ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، المفيد : ٣٢٦ ، ٣٤٣ ، بامخرمة : ٥٩/٢ .

(٤٢) بامخرمة : ١٢٨/٢ قرة العيون : ٣٦٨

(٤٢) بامخرمة : ١٢٨/٢ ، قرة العيون : ٣٦٨ .

(٤٤) نفس المصدر (الجبابى : قرية أعلى عزلة أنامر على سن مخلاف جبلة جنوب غربى اب . وحصن المسوار جنوب اب يسيطر على المحجة الرئيسية الى الجند وعدن . حول زلال هى أرض زلال ضواحى جبلة . نفس المصدر حواشى للمحقق ص ٣٦٩) .

(٤٥) بامخرمة : ١٢٨/٢ ، قرة العيون : ٣٦٩ — ٣٧٢ .

(٤٦) قرة العيون : ٣٧٢ .

(٤٧) بهجة الزمن : ٧٥ ، وفيات الأعيان : ٣٠٦/١ .

(٤٨) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن : ١٢٧/٢ — ١٢٨ .

(٤٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٧٣/١١ ، ١٧٤ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول السلوك ٥٢/١ تحقيق زيادة القاهرة ١٩٣٤ .

(٥٠) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ٤٩٠ — ٤٩١ .

(٥١) ابو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ١/٢٢٠ ، بولاق ١٢٨٨هـ

(٥٢) انظر : عطية احمد القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ص ١٣٥ رسالة دكتوراه جامعة القاهرة ١٩٧٣ .

(٥٣) المقريزى : السلوك ١/٤٦ .

(٥٤) انظر عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ١٤٤ — ١٤٧ ذكر أخبار الحملتين وأعمالهما العدوانية بالتفصيل .

(٥٥) قرة العيون : ٣٧٣ ، بامخرمة : ١٢٨/٢ رجع الشريف قاسم بن غانم الى بلده وقد حقق ثأره ويقول : من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى فعاش بعد ذلك شهرا (قرة العيون : ٣٧٣) .